**بشارة دوماني***

# المحذوفون من السرد التاريخي**

**يتعقب الكاتب في هذه المقالة التطور التاريخي للكتابات العلمية عن فلسطين في الثقافة الأنجلو – سكسونية، ويرى أنها، في معظمها، تناولت ثلاثة عناوين رئيسية هي: الأرض (المقدسة)؛ الدولة (فلسطين)؛ المجتمع (الفلسطينيون). ويلاحظ أن ثلاثية الكاميرا والمجرفة والمفكرة هي التي جعلت فلسطين أرضاً مقدسة أوروبية؛ فآلة التصوير أنتجت الصور المرئية التي أعادت كتابة الماضي، وتجنبت، في الوقت نفسه، التركيز على الناس، ثم اهتمت بمعالم الطبيعة بالدرجة الأولى. أمّا المجرفة فهي التعبير الأمثل عن علم الآثار التوراتي، بينما كانت المفكرة خلاصة ذلك كله. وفي هذه الخلاصة لم يحظ السكان الأصليون إلاّ بقليل من اهتمام الكتابات الأوروبية عن فلسطين، وحتى هذا القليل كان خيالات دينية أو تعبيراً عن مصالح سياسية، أو عن هويات ثقافية، الأمر الذي يعني، في نهاية المطاف، إهالة الركام على التاريخ الحي لهذا الجزء الحيوي من العالم.**

**لم** تحظ أي مواجهة كولونيالية في العصر الحديث بمثل الاهتمام الذي حظي به الصراع العربي – الإسرائيلي على المستويين الأكاديمي والشعبي، كما أن أي منطقة خارج أوروبا والولايات المتحدة لم تثر اهتماماً في العالم الغربي بعمق الاهتمام الذي أثارته فلسطين، أو ما يُعرف بـ "الأرض المقدسة". إن تقصي هذين الموضوعين الواسعين، في إطار الحيز المتاح، لا يسمح بتناولهما إلاّ بخطوطهما العريضة.

وما أطرحه في هذه المقالة هو أن إعادة اكتشاف أوروبا المجالَ الديني – الجغرافي المسمى "الأرض المقدسة" في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، كانت أيضاً عملية محو استطرادي للمجتمع الذي سكن في هذا المجال. وهذا المحو الاستطرادي يشكل الأساس المعرفي لجميع الكتابات التاريخية الحديثة عن فلسطين، فهو يحدد الافتراضات الأساسية التي يقوم عليها الإنتاج الثقافي المتعلق بالاستشراق والقومية وحتى الإسلام السياسي، في القرن العشرين، كما أنه مهد الطريق أمام الحكم الكولونيالي البريطاني والاستيطان الكولونيالي الصهيوني في فلسطين. بعبارة أُخرى، فإن ما نتج من إعادة الاختراع الحديثة للأرض المقدسة باعتبارها حصيلة الشغف الديني والعلمي في سياق التوسع الإمبراطوري الأوروبي، أدى إلى استنتاج لا مفر منه: إن أهمية فلسطين، الأرض، بالنسبة إلى "الغرب"، أكبر من أن تسمح للسكان الأصليين – أولئك الذين سيعتبرون أنفسهم لاحقاً الفلسطينيين المعاصرين – بأن يُدوَّنوا في التاريخ، فضلاً عن امتلاكهم حقوقاً سياسية في الأرض نفسها.

ويشير عنوان المقالة: "المحذوفون من السرد التاريخي" إلى أن الهوس بالأرض ومستلزمات الصراع تطلبا تغييب السكان بالصمت، عندما تعلّق ذلك بتركيب السرديات التاريخية. وهذا الصمت لا يعود، بطبيعة الحال، إلى نقص في المعرفة بشأن السكان، وإنما هو، بالأحرى، جزء من عملية إنتاج المعرفة نفسها. إن هذا الحذف الاستطرادي، على الرغم من خفوت تأثيره بمرور الزمن، تغلغل عميقاً في الكتابات الأكاديمية والعادية على حد سواء خلال القرن العشرين، وقد انتهى به الأمر، منذ عشرينيات القرن الماضي، إلى تضييق مجال هذه الكتابات إلى حدٍّ كبير، وانشغالها بالصراع السياسي الرسمي بشأن البلد.

وتترك هذه الاستمرارية آثاراً عديدة في كيفية تركيب سرديات الماضي، وكما هو متوقع، فإن بعض الفترات يُعتبر أكثر أهمية من الآخر. فعلى سبيل المثال، إن الإنتاج الكثيف للأدبيات المتعلقة بـ "الحقب الغربية القصيرة" – التوراتية والصليبية وحقبة ما بعد الحرب العالمية الأولى – يقف على النقيض من ندرة الأعمال المتعلقة بالفترات الأُخرى كلها، وخصوصاً العربية والإسلامية، وتغدو السببية طريقاً يمتلك اتجاهاً واحداً يبدأ في أوروبا، فيُعزى الفضل في إنتاج **التاريخ** إلى القوى الغريبة عن فلسطين، بينما لا يحظى تاريخ السكان الأصليين وحياتهم إلاّ بقليل من الاهتمام والأهمية. وتبدأ الحداثة من الالتقاء المباشر أو غير المباشر بين خطين زمنيين: الخط الأوروبي وخط **الآخرين** الموازي له، ويشكل التقاطع بينهما نقطة انقطاع تشير إلى نهاية الزمن التقليدي الذي يُنظر إليه على أنه ممتد تاريخياً إلى زمن يسوع المسيح.

إذاً، ليس من المفاجئ أن يكون معظم ما تم إنتاجه، إنما يعبّر عن تخيلات دينية ومصالح سياسية وهويات ثقافية غربية، أكثر من كشفه

التاريخ الحي لهذا الجزء من العالم (سواء أتم ذلك في شكل كتب، أم خرائط، أم صور فوتوغرافية، أم اكتشافات أثرية، وهذه فقط بعض أشكال الإنتاج).

صحيح أن التدفق الهائل للنصوص، بالمعنى الواسع للكلمة، ترك للعلماء الحاليين كنزاً هائلاً من المعلومات التي يمكن التنقيب فيها وغربلتها والاستفادة منها إذا ما قرئت على نحو مخالف لمضمونها الأساسي، إلاّ إن هذه النصوص تتسم بقلة البصيرة والفهم، فضلاً عن تضييق ملحوظ لمجال الرؤية.

ومثل هذه التعميمات، يُخفي، بطبيعة الحال، استثناءات مهمة، ولا يولي اعتباراً كافياً للمشهد المتغير لإنتاج المعرفة، وخصوصاً على مدى الجيل الماضي. كما تقدم هذه المقالة، عن طريق الغوص أعمق قليلاً في هذا الموضوع، وإن بخطوط عريضة، إطاراً لفهم المراحل الثلاث الرئيسية في الكتابات التاريخية المتعلقة بفلسطين ما قبل سنة 1948، والحجة الأساسية التي تطرحها في هذا الصدد هي أن الخطوط العامة للتقصّي، وكذلك مجموعة المصادر، تشهدان ثلاثة تحولات رئيسية من حيث التركيز: من الأرض إلى الدولة إلى المجتمع؛ لكني أود في البداية الإشارة إلى بعض الملاحظات السريعة بهدف وضع الأمور في نصابها.

لقد كُلفتُ تحليل إنتاج المعرفة في العالم الأنجلو – سكسوني، لكن طُلب مني أن أستثني من ذلك الأعمال التي كتبها فلسطينيون وعرب آخرون، وكذلك إسرائيليون، باللغة الإنجليزية، باعتبار أن هذا المؤتمر الذي كُرس له يوم واحد، تم تقسيمه إلى ثلاث مناقشات بالعربية والفرنسية والإنجليزية، على أساس الأصل العرقي للكتّاب. ولا شك في أن ثمة اختلافات في الإنتاج الفكري العربي والفرنكوفوني والأنجلوفوني، لكن القواسم المشتركة، وخصوصاً عندما يتعلق الأمر بفلسطين، لا تقل أهمية عن الاختلافات، إن لم تكن أكثر أهمية منها. وأبعد من ذلك، فإن جدوى استثناء مجموعات المؤلفين الذين يكتبون باللغة الإنجليزية من الإنتاج الفكري الأنجلوفوني على أساس أصلهم العرقي أو الوطني، ليست واضحة لديّ، لأنها لا تأخذ في الاعتبار أن ولوج لغة معينة يعني قبول قدر معين من العناصر التي تأتي معها استطراداً، بغض النظر عن خلفية المؤلف. وعلى سبيل المثال، فإن جورج أنطونيوس وألبرت حوراني وإدوارد سعيد، بين العديد من الشخصيات الأخرى التي أدت دوراً تأسيسياً في كتابة تاريخ فلسطين والصراع العربي – الإسرائيلي، كتبوا، في المقام الأول وإن لم يكن حصراً، باللغة الإنجليزية، وكانوا نتاج جامعات أنجلو – سكسونية، وهناك أمور مشتركة بينهم وبين زملائهم الأجانب، ثقافياً وفكرياً، أكثر مما هي الحال، مثلاً، بينهم وبين معظم المثقفين العرب.

لعل ما هو أكثر فائدة من التصنيف العرقي أو اللغوي، هو دراسة أصول وحدات التحليل المعروضة، وحبكة السردية المستخدمة، وأنواع المصادر التي يجري التمحيص فيها. وهذه هي المعايير الأساسية المستخدمة في هذه المقالة للتأمل في التطور التاريخي للكتابات العلمية عن فلسطين والفلسطينيين، وتتم مناقشتها في ضوء تغير السياقات الفكرية والسياسية، لأن الكتابات عن فلسطين تميل إلى التأثر بالأحداث الجارية والمنظورات الأيديولوجية.

وتعود العلاقة الوثيقة بين السياسة والكتابة إلى ثلاثة أسباب هي: الأول، هو الأهمية الرمزية الشديدة لفلسطين وموقعها الاستراتيجي كجسر بري بين آسيا وإفريقيا. وليس هناك أي بلد، أو منطقة، تقتصر ملكيتهما على نفسيهما أو على الشعب الذي يعيش فيهما، إلاّ إن هذا الأمر ينطبق على فلسطين أكثر من أي بلد آخر. فأتباع الديانات التوحيدية الرئيسية الثلاث – اليهودية والمسيحية والإسلام – يدّعون أن لهم حقوقاً فيها، كما أنها تمتلك موقعاً بارزاً في تاريخ منطقة البحر الأبيض المتوسط، والتاريخين العربي والإسلامي. والسبب الثاني هو حقيقة أن الاستعمار الصهيوني لفلسطين – مع كل ما ينطوي عليه من التشريد الديموغرافي، ومصادرة الأرض، والمقاومة، والقمع، والصراعات الإقليمية – إنما هو عملية مستمرة حتى الآن، ولا يستطيع أي كتاب تاريخي أو عمل أدبي التهرب منها. إن الصراع لا يزال ساخناً، ومعالمه ومحطاته تتحكم مباشرة في تشكيل بنية السرديات التاريخية بطريقة أكثر قوة ومباشرة ممّا هي الحال بالنسبة إلى معظم المناطق الأخرى. أمّا السبب الثالث فهو مدى مساهمة التجارب التاريخية للطوائف أو الجماعات (communities) اليهودية الأوروبية، وخصوصاً تجربة المحرقة، في تشكيل الهويات القارية الأوروبية والأنجلو – سكسونية الحديثة، هذا إذا كان يمكن لأحد أن يستخدم مثل هذه المصطلحات العامة بأي قدر من الدقة. إن مسألة فلسطين ومصير الفلسطينيين لا يمكن أن يكونا بمنأى عن هذه التداعيات غير المباشرة والقوية. ومع أخذنا هذه التوصيفات في الاعتبار، يمكننا الآن أن ننتقل إلى تقديم لمحة عامة عن إنتاج المعرفة عن فلسطين قبل سنة 1948، وسنحدد فيما يلي ثلاثة تحولات رئيسية في أطر التحليل، والمفردات المستخدمة، والمصادر المستعملة: من الأرض، إلى الدولة، إلى المجتمع.

### 1 – الأرض المقدسة الحديثة

أهمية فلسطين الدينية، أو قداستها، هما ظاهرة تاريخية قديمة ومستمرة، لكنهما كانتا تعنيان أموراً متنوعة لمجموعات متعددة في مختلف الأوقات. إن (إعادة) الاختراع الأوروبي الحديث للأرض

المقدسة هو نتاج زواج بين الإيمان بالكتاب المقدس باعتباره الحقيقة المطلقة، من جهة، وبين الإيمان بالأساليب العلمية/الحديثة لإنتاج المعرفة كوسيلة مطلقة لاكتشاف الحقيقة أو تأكيدها، من جهة أُخرى. وقد أنتج هذا الزواج تخصصات أكاديمية جديدة، مثل الجغرافيا التوراتية وعلم الآثار التوراتي، وهما عبارة عن ترجمة حرفية ومجازية لتيارات متعددة من الإيمان المسيحي تجسّدت في وحدات قياس دقيقة للأرض والحقيقة التاريخية المستترة خلفها. وطبعاً، فإن هذه الرؤية الأوروبية الحديثة للأرض المقدسة لا تعطي الجماعات التي تعيش على الأرض مكاناً شرعياً داخل هذا العالم المعرفي.

إن أكثر هذه التيارات الدينية أهمية لمستقبل فلسطين والفلسطينيين هو التيار الإنجيلي الألفي (millenarian) الذي يسعى لإرجاع اليهود إلى فلسطين كشرط مسبق للمجيء الثاني للمسيح. والشعار الصهيوني "أرض بلا شعب لشعب بلا أرض" مستمد من الفكرة الرئيسية لعقيدة التيار الإنجيلي كما عبّر عنها أشهر شخصياتها خلال القرن التاسع عشر، اللورد شافتسبوري، فقد كتب، قبل ظهور الصهيونية السياسية بوقت طويل، ما يلي:

*هذه المناطق الشاسعة والخصبة ستصبح قريباً من دون حاكم، من دون سلطة معروفة ومعترف بها تطالب بالسيادة عليها. يجب أن تُخصَّص الأرض لأحد ما... هناك دولة بلا شعب، والله الآن، بحكمته ورحمته، يرشدنا إلى شعب من دون دولة.*[1]

واستطرد قائلاً في مذكراته: "هل يوجد شيء من هذا القبيل؟ يوجد بكل تأكيد، فالملاك القديمون والحقيقيون للأرض هم اليهود!" لقد أصبح اللورد شافتسبوري، فيما بعد، رئيساً لصندوق استكشاف فلسطين، وهو الجمعية التي أسسها، في سنة 1865، جيمس فِن، القنصل البريطاني في القدس وأحد الأنصار البارزين لإرجاع اليهود، وكان الهدف من الصندوق هو: "... تشجيع الاستشكاف العلمي، والبحوث الأثرية، ورسم خرائط الأرض المقدسة"، بالإضافة إلى تقديم "... المشورة والدعم المالي لتشجيع اليهود على الهجرة إلى فلسطين، وبناء المستعمرات الزراعية." ولدى تولّي اللورد شافتسبوري رئاسة الصندوق أعلن ما يلي:

*دعونا لا نتأخر في إرسال أفضل العملاء... لاستكشاف فلسطين طولاً وعرضاً، ولمسح الأراضي، وإذا أمكن، لفحص كل ركن فيها، وتفقدها، وقياسها، وإذا شئتم، لإعدادها لعودة مُلاكها القدماء، لأنني أعتقد أن ذلك اليوم الذي سيقع فيه هذا الحدث الكبير لن يكون بعيداً...*

هكذا، وباسم الله والحضارة، جمع صندوق استكشاف فلسطين مختلف وسائل الاستقصاء العلمي ووضعها في خدمة ممارسات فكرية مستوحاة من الكتاب المقدس. وبعبارة أُخرى، فإن الكتاب المقدس يؤدي دور جدول أعمال للبحوث، وأداة لتأطير السرديات التاريخية.

لقد استخدمتُ في إحدى مقالاتي السابقة، استعارات المرجل الثلاثي القوائم، والمجرفة، والمفكرة (notebook)، للإشارة إلى مجموعة الأنشطة التي نُفّذت بواسطتها عملية التحويل الاستطرادي لفلسطين جاعلة منها أرضاً مقدسة أوروبية حديثة. والمرجل هو الإطار الخشبي الذي تستند إليه كاميرات التصوير الساكنة والمتحركة، وقماشة الفنان المعدة للرسم، ومعدات القياس الخاصة بالمسّاح، وقد أنتجت هذه الأدوات الثلاث جميعها الصور المرئية التي أعادت كتابة الماضي وشكلت المستقبل، لكنها لدى قيامها بذلك، تجنبت التركيز على الناس، باستثناء كونهم جزءاً من الطبيعة أو شخوصاً غريبة، وركزت، بدلاً من ذلك، على المشاهد الطبيعية والمعالم التي تستحضر أمجاد العصور القديمة. وتشكل رسومات ديفيد روبرتس الليتوغرافية، وهو الفنان الإسكتلندي الذي أصبح في وقت لاحق عضواً في الأكاديمية الملكية، المثال الأشهر لتلك الصور والأشد تأثيراً (والتي تضمنت أيضاً هوساً رئيسياً آخر في ذلك الزمن هو الهوس بعصر الفراعنة).

وعلى نحو مماثل، تدفق المصورون إلى فلسطين، وأنشأوا مشروعاً تجارياً محلياً نشيطاً كانت نتيجته آلافاً مؤلفة من الصور، وخصوصاً تلك المتعلقة بالقدس وضواحيها. ويقال إن أولى الصور المتحركة التي التُقطت كانت، على الإطلاق، تلك التي التقطها الإخوة لوميار في فلسطين. وقد تجول المساحون كي يرسموا بهوس ودقة خطى يسوع المسيح، كما كشف عنها الكتاب المقدس. وأصبح العمل الذي قام به آدم سميث، وهو أشهر المؤرخين الجغرافيين، الأساس الذي استندت إليه الحكومة البريطانية في رسم حدود الانتداب على فلسطين.

وتمثل المجرفة علم الآثار التوراتي الجديد ذا التأثير الهائل، الذي سوّغ كمّاً كبيراً من الادعاءات السياسية والدينية والثقافية المتناقضة، والذي لا تزال نتائجه موضع جدل اليوم كما كانت آنذاك. ومن خلال علم الآثار هذا، تم، حرفياً، الحفر تحت فلسطين العربية والإسلامية من أجل الوصول إلى الطبقات المرغوب فيها.

أمّا المفكرة فتمثل النظرة الأوروبية، ولا سيما كما جرى التعبير عنها في أدب الرحلات، والتقارير التبشيرية، والسجلات القنصلية، والرسائل، والمذكرات، التي تم نشرها على نطاق واسع، وجُمعت بشغف، والتي كثيراً ما استُخدمت كأدلة واقعية من الطراز الأول، حتى لو شاب معظمها أحكام شوفينية وعنصرية وملاحظات انتقائية للغاية.

ولا يزال حقل "الأرض المقدسة" الاستطرادي الحديث يسيطر على متخيل الجمهور سيطرة محكمة، وأصبحت الافتراضات التي يقوم عليها قاسماً مشتركاً بين الأيديولوجيات الكبرى كلها، الصهيونية والفلسطينية على حد سواء، التي تهيمن على الإنتاج التاريخي، في مجالات الاستشراق والقومية والإسلام السياسي. وهذه الأيديولوجيات ربما تختلف سياسياً، لكنها ورثت المترادفات كلها التي يتم ترتيب القصص التي ترويها وفقاً لها: ناشط/ سلبي؛ داخلي/ خارجي؛ حديث/ تقليدي.

**2 - الدولة (فلسطين)**

منذ عشرينيات القرن العشرين وحتى سبعينياته صارت الدولة، وليس الكتاب المقدس، الإطار الأساسي للتحليل، ومثّلت عصبة الأمم ونظام الانتداب محاولتين لإدارة عملية الانتقال من الإمبراطورية إلى الدولة بصفتها الشكل السائد للتنظيم السياسي، ولإنشاء هياكل جديدة للسيطرة الاستعمارية على السكان المتمردين. وقد ركزت الكتابات التاريخية، في معظمها، على التأمل في معضلات تأكيد الهوية القومية والإرث الكولونيالي في إبان انحسار القوة الأوروبية؛ وفي انعطافة لا تزال مهيمنة حتى الآن، أصبحت الكتابة عن فلسطين والصراع العربي – الإسرائيلي سردية سياسية رسمية في جوهرها. وبمرور الوقت، وخصوصاً بعد ثورة 1936 – 1939 الكبرى في فلسطين ضد الحكم الاستعماري البريطاني، بدأ شعب يسمى الفلسطينيين يظهر في هذه السرديات، وإن كان ظهوره، في معظم الحالات، في شكل كتلة من السكان الأصليين الذين يشار إليهم كعرب أو مسلمين، والذين يحتلون في أذهان المسؤولين الإداريين للاستعمار البريطاني المرتبة الأدنى في التسلسل الهرمي للفئات الاجتماعية. "كان يمكن لهذا البلد أن يكون في غاية الجمال لو كان الشعب الموجود فيه مختلفاً"[2] - هذا ما كتبه م. ك. بورغيس الذي عمل مدرساً في دائرة التربية والتعليم في نهاية حكم الانتداب في سنة 1948.

وكان معنى التحول في حبكة السرد من الإطار التوراتي إلى إطار تكوين الدولة، أن الناس الذين كانوا غائبين إلى حد كبير في الإطار الأول، بدأوا يظهرون في الإطار الثاني كشخوص يجب إحصاؤهم، وحكمهم، وتهذيبهم، وأصبح التاريخ قصة الشعوب والأمم القائمة على الإيمان بمركزية الدولة لتحقيق التقدم البشري. وكان معنى الولع بالتوسع الرأسمالي ودور الدولة باعتبارها مهندساً، هو فرض برنامج شامل من الأعلى، من التغييرات العسكرية، والمالية، والاجتماعية، والاقتصادية، والقانونية.

إن نتاج "البيانات الرقمية" خلال هذه الفترة هو على قدر كبير من الضخامة، إذ قامت جملة من المؤسسات التابعة للدولة بتنفيذ ثلاثة أنواع من الممارسات هي: الإحصاء؛ الحكم؛ وضع أسس الملكية القانونية ومفاهيم الحق. فالأرشيفات البريطانية والفرنسية والألمانية والروسية، وأخيراً وليس آخراً، العثمانية، ملأى بالسجلات المتسلسلة كتعداد السكان، وكشوف التجنيد، وسجلات الضرائب، وإحصاءات الواردات والصادرات، وغيرها، ويلي ذلك مختلف المؤسسات الإدارية للدولة على المستويين المحلي والإقليمي، مثل: البلديات والأكاديميات العسكرية، والمدارس، والمستشفيات، والمؤسسات القانونية الجديدة، وهذه جميعها تركت آثاراً ورقية مذهلة؛ فضلاً عن ذلك، ثمة سجلات الأعمال التجارية الخاصة وغيرها من السجلات المتعلقة بالشركات والمصارف العاملة في مجالات الصناعة والتجارة والنقل، وما شابه ذلك. وفي هذه المصادر جميعها، فإن الدولة وحكاية الحداثة تشكلان جوهر أي سردية تاريخية عن فلسطين، فعلى سبيل المثال، عجّلت المقاومة المتنامية ضد الاحتلال البريطاني في تأليف تسع عشرة لجنة تحقيق ملأت وثائقها، كتلك المتعلقة بتقرير لجنة هوب – سمبسون، رفوفاً وغرف تخزين.

**3 - المجتمع (الفلسطينيون)**

في ثمانينيات القرن العشرين، بدأ تركيز المؤرخين ينصبّ على التحول من الدولة ومحفوظاتها إلى المجتمع وأنواع المصادر التي أنتجها الناس، أو أُنتجت عنهم في سعيهم وراء حياتهم اليومية، وكانت النجاحات (الموقتة) للحركات المناهضة للاستعمار في الخمسينيات والستينيات، وصعود السياسة الثقافية الراديكالية بشأن العرق والجنس والطبقة في الستينيات والسبعينيات، وقدرة الحركة الوطنية الفلسطينية على فرض نفسها لاعباً سياسياً، عوامل ساهمت كلها في هذا التحول. وقد تعزز الاهتمام المتزايد بالفلسطينيين، وليس فقط بفلسطين والصراع العربي – الإسرائيلي، جرّاء مقاومة كثيفة قام بها الفلسطينيون، وخصوصاً خلال الانتفاضة الأولى.

وبمرور الوقت، بدأ المؤرخون يحولون انتباههم من فلسطين (الأرض المقدسة والدولة)، إلى الحياة الاجتماعية والثقافية للفلسطينيين. فبالإضافة إلى القراءة النقدية الجديدة لنوعَي المصادر السابقين أُدرج نوع ثالث من المواد الجديدة التي أنتجها الفلسطينيون أنفسهم: التاريخ الشفوي؛ الثقافة المادية؛ سجلات المحاكم الشرعية والكنسية؛ الممارسات الشعبية؛ اليوميات؛ الرسائل؛ الأدب؛ الموسيقى؛ الفن؛ البيئة المبنية؛ وغيرها. وعلى الرغم من أن نخب الذكور في المناطق الحضرية والطبقات المتوسطة ممثلة تمثيلاً جيداً في هذه المصادر الجديدة، فإن هناك عناصر كثيرة أُخرى

متوفرة تمكّن من إلقاء نظرة فاحصة على كثير من الفئات الاجتماعية المهمشة حتى الآن، مثل الفلاحين، والنساء، والفقراء العاملين، والبدو، مع أن هذه المصادر تمنح مكانة مميزة للقدس ويافا وحيفا، التي حصلت على نصيب الأسد من الاهتمام والاستثمار المادي منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وفي الوقت نفسه، فإن المؤرخين توسعت آفاقهم لتشمل مناطق ومدناً أُخرى مثل نابلس وعكا، وذلك على الرغم من أنه لا يزال هناك عدم تناسق كبير في الدراسات الإقليمية.

إلى جانب إعادة التركيز على المجتمع والحيز الجغرافي، بدأ التركيز ينصبّ على حقب زمنية تم إهمالها فترات طويلة، ذلك بأنه حتى عهد قريب، لم يُعرَف أي شيء تقريباً عن تاريخ فلسطين خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، لأنها كانت تُستبعَد بصفتها تشكل فترة مظلمة من الانحدار والركود، ولم يحدث خلالها أي شيء جدير بالملاحظة. إن الحال لم تعد كذلك، فهناك الآن اهتمام نشيط بـ "بدايات العصر الحديث" الذي يجري تصويره، على نحو متزايد، أنه فترة تكوينية تم خلالها تطوير جميع الهياكل الرئيسية للمجتمع الفلسطيني واقتصاده وثقافته السياسية خلال القرن العشرين.

**ما بعد أوسلو**

لا يزال من السابق أوانه أن نحكم على فترة ما بعد أوسلو/ ما بعد الحرب الباردة، لكن هناك اتجاهين جديرين بالملاحظة فيما يتعلق بالكتابات التاريخية "الأنجلو – سكسونية" عن فلسطين والصراع العربي – الإسرائيلي، هما: الأول، ظهور الحضارة والديانة (المتعلقتين بمرحلة الأرض المقدسة) كوحدتين أساسيتين للتحليل بعد فشل المشروع القومي العربي، وتوقيع اتفاق السلام بين مصر وإسرائيل، والثورة الإسلامية في إيران، وأحداث 9/11.

أمّا الاتجاه الثاني فهو تهميش أهمية فلسطين والفلسطينيين، إلى حد معين، في المخيلة العامة، ويعود ذلك إلى أن الخطاب العام الغربي والإسلامي والعربي حوّل نظرته بشكل حاد في اتجاه الشرق، نحو العراق وأفغانستان. إن الجيل الحالي من الأكاديميين الشبان ينمو في ظل التدخل العسكري الأميركي الهائل في هذين البلدين، فضلاً عن الأهمية المتزايدة، على الأقل من الناحية الاقتصادية، لمنطقة الخليج، والهند، والصين. ويمتصّ هؤلاء الأكاديميون الشبان مفردات سياسية تقوم على تقسيمات بين مسلم وغير مسلم، وسني وشيعي، وتُستخدم كأدوات لوضع أطر البحث، كما أنهم يسلّمون بأن المواجهة بين الولايات المتحدة وإيران تشكل الدينامية المحركة الأساسية في المنطقة. وفي الوقت نفسه، فإن الحركة الوطنية الفلسطينية تحتضر، والمشروع الكولونيالي الإسرائيلي يتقدم بخطى متسارعة، والعولمة تقوّض مركزية الدولة باعتبارها محور الاستقصاء الفكري.

كيف يؤثر هذا في موضوع فلسطين والصراع العربي – الإسرائيلي الذي كان له بريق حاد ذات يوم؟ هذا ما سنراه في المستقبل. وما هو واضح الآن هو أن أساتذة الجامعات والكتب يفقدون مكانتهم المتميزة باعتبارهم المصادر والأشكال الرئيسية لإنتاج المعرفة ونقلها، كما أن طواقم مراكز الأبحاث الخاصة والإنترنت ينافسان الجامعة والمكتبة بشأن قلب الجمهور الواعي وعقله. وهذا صحيح بشكل خاص عندما يتعلق الأمر بالكتابات التاريخية عن فلسطين، ولو بسبب كون المؤرخين المهنيين، بمن فيهم العديد من الإسرائيليين، ما عادوا يجادلون في الوقائع والأحداث الرئيسية التي تتفق جميعها مع السردية الفلسطينية إلى حد كبير. إن المعارك بشأن كيفية تأطير الماضي، والمفردات التحليلية التي يجب استخدامها، وما هي المصادر التي تُعتبر موثوقاً بها، إنما يتم الخوض فيها في مكان آخر، كما أن آلية مراقبة المعلومات المكثفة في عصر المعلومات تؤدي، وعلى نحو متزايد، دوراً محورياً في هذا المجال.

بالنسبة إلى المؤرخين، لا يزال هناك قدر هائل من الاستقصاء المطلوب من أجل قلب خطاب المحو، الذي قارب عمره الآن قرنين من الزمان، رأساً على عقب. وفي الوقت نفسه، ما عاد كافياً مجرد مراكمة الوقائع التي تشهد على وجود مجتمع متطور وديناميي في فلسطين التاريخية قبل أن أدى الاستيطان الصهيوني والحكم الاستعماري البريطاني إلى التطهير العرقي في سنة 1948. إن قوة التأطير لا تقل حيوية عن ذلك، ويكمن التحدي الرئيسي بالنسبة إلى الفلسطينيين في أن يكونوا قادرين على الإمساك بزمام السيطرة على السردية الخاصة بهم. وهذه مسالة على قدر من الإلحاح، في الوقت الذي يجري تدمير منهجي لاثنين من أغنى الكنوز المتعلقة بتاريخ فلسطين والفلسطينيين، هما: أولاً، المشهد الطبيعي (الذي يشهد على الروابط التاريخية بين الفلسطينيين وأرضهم)؛ الثاني، الروابط الاجتماعية والمجتمعية التي تحتضن الذاكرة الجماعية للفلسطينيين. وفي ظل النشاط الدؤوب والمتواصل للجرافات الإسرائيلية، فإن المشهد الطبيعي لفلسطين تغير على مدى ستين عاماً أكثر مما تغير على مدى آلاف من الأعوام الماضية، كما تم في الوقت نفسه، تشتيت الفلسطينيين وتمزيقهم، ودُمرت مؤسساتهم، وخُرب اقتصادهم، وقيدت حريتهم في التنقل، وكسرت مقاومتهم مرة تلو الأُخرى.

ماذا تستطيع الكتب أن تفعل؟ ما هو الدور الذي يجب أن يقوم به المؤرخون؟ كيف يمكن كتابة

الفلسطينيين في التاريخ، وبالتالي، في المستقبل؟ ■

(*) أستاذ علم الاجتماع في جامعة بيركلي – كاليفورنيا.

(**) محاضرة أُلقيت في مؤتمر "الكتاب والقضية الفلسطينية" (بيروت، 2010/1/8) الذي نظمته مؤسسة الدراسات الفلسطينية بالتعاون مع وزارة الثقافة اللبنانية في إطار فاعليات "بيروت عاصمة عالمية للكتاب".

**ترجمة:** سمير صراص.

(1) شافتسبوري نقلاً عن:

Adam M. Garfinkle, “On the Origin, Meaning, Use and Abuse of a Phrase”, *Middle Eastern Studies*, vol. 27 (October 1991).

(2) نقلاً عن مارتن بونتون في مراجعته للكتب الجديدة عن الانتداب البريطاني، انظر:

Martin Bunton, “Mandate Daze: Stories of British Rule in Palestine, 1917-1948”, *International Journal of Middle East Studies*, vol. 35, no. 3 (August 2003), p. 490.